تمهيد

لابد لكل علم أو نظرية أو منهج كان من أن يكون له امتداد تاريخي ينشأ ويتطور مستقيا جذوره وماء الحياة مما يحيط به من علوم أخرى، إذ لا يستطيع علم ما أن ينشأ منفردا عن غيره من العلوم، بل في ظلها وتحت رعايتها ينشأ وينمو.

و السيميولوجيا كغيرها من المناهج والنظريات كان لها مسيرة حياة طويلة بدأت بوادرها منذ عهد اليونان والإغريق، وامتدت لتكتمل صورتها وتتضح أسسها العلمية في القرن العشرين.

ولم تقتصر السيميولوجيا على لغة دون أخرى بل تجدها قد ظهرت عند العرب و المسلمين كما ظهرت عند الغرب، ولكنها اتخذت مسيرة مختلفة للنمو عند كل منهما، ولكنها نبتت من أصل واحد-أرجعه البعض إلى الإغريق-ثم امتدتا لتلتقيا على بساط النقد الأدبي الحديث في العصر الحالي.

وبهذا فقد أصبح المنهج السيميولوجي تصورا ونظرية و"**علما**" لا يمكن الاستغناء عنه لما أظهر عند الكثير من الدارسين والباحثين من نجاعة تحليليه وكفاءته في شتى التخصصات وخاصة في ميدان علوم الإعلام والاتصال، وعلم الاجتماع اللغوي.

وللامساك بحدود السيميولوجيا وجوانبها كان لابد من تتبع مراحل تطور السيميولوجيا عند العرب والغرب لمعرفة أصولها وامتدادها في الفكر الإنساني .

إذن فكيف نشأت وتطورت السيميولوجيا؟ وما المقصود بها؟ .

١. نشأة وتطور السيميولوجيا

١.١ المرحلة الأولى

يعود تاريخ السيميولوجيا إلى ٢٠٠٠ سنة مضت كما يقول "أمبرطو إيكو[*](مؤلف رواية اسم الوردة) وهو يتكلم عن السيميولوجيا ومنه فعلم السيميولوجيا ليس علما وليد العصر الحديث كما يزعم بعضهم، وفي مقدمتهم الغرب، حيث استعمل في الأصل للدلالة على علم في الطب وموضوعه دراسة العلامة الدالة على المرض، ولا سيما في التراث الإغريقي حيث عدت السيميوطيقا جزءا لا يتجزأ من الطب **(ميشال أريفيه وآخرون: ١٩٩٠،ص.٢١).**

وقد وظف "أفلاطون" لفظ(Sémiotique) للدلالة على فن الإقناع وهذا ما أورده في كتابه وأكد أن للأشياء جوهرا ثابتا وأن الكلمة أداة للتوصيل، وبذلك يكون بين الكلمة ومعناها تلاءم طبيعي بين الدال والمدلول **(http://www.arabicnadwah.com)**، إلا أن أرسطو جعل هناك فرقا بين العلامة اللسانية و (semeion)، حيث يجعل العلامة قضية برهانية إما ضرورية وإما احتمالية من خلال إنتاج شيء على شيء.

فالعلامة اللسانية في نظر أرسطو تفتقر إلى القدرة على الاستدلال، بينما تمتلك السيميون القدرة التي تؤهلها للانخراط في العمليات الاستدلالية **(أحمد يوسف:٢٠٠٥، ص. ٢١).**

ابتدأ "أرسطو" بوادر التفكير السيميولوجي من خلال إشارته إلى أن الإنسان قد تحرر من دنيا الحيوانية، وسما بفكره عنها حينما لجأ إلى الترميز واستخدام اللغة في التعبير عن مراده بعلامات بسيطة أخذت في التطور بعد ذلك، حيث استخدم اللغة والكلام للتواصل الاجتماعي بالتواطؤ على استخدام دلالات هذه الرموز المستخدمة، وبذلك شكلت هذه الأفكار البدايات الأولى للسانيات **(سعيد بنكراد: ٢٠٠٧، ص. ١٣).**

[*] يرى إيكو أيضا أن الرواقيين هم أصلا من العمال الأجانب في أثينا وبالتالي فهم دخلاء عليها، فأصلهم الحقيقي يعود إلى الكنعانيين الفينيقيين القادمين من أرض كنعان**(ميشال أريفيه وآخرون: ١٩٩٠،ص.٢١).**

وقد لاحظ "أرسطو" في تتبعه للكلام فروقا بين الكلام والأشياء والأفكار، فقال بأن الأشياء هو ما تدركه الحواس، بينما الأفكار فهي أداة معرفة الأشياء، ويبقى الكلام عبارة عن أصوات متمفصلة في وحدات تخبر عن الأفكار.وبذلك يكون له السبق في تحديد فحوى التوسط الإلزامي بين الحدود المكونة للعلامة، وأضاف أرسطو إلى العناصر الثلاثة السابقة عنصر الكتابة، وكأن عناصره متمثلة في دال ومدلول ومؤول، هي أشياء وكلام وأفكار **(سعيد بنكراد:٢٠٠٧، ص. ١٣)**.

ثم توالت اهتمامات الرواقيين الذين أسسوا لفكر سيميولوجي، فهم أول من قال بأن للعلامة دالا ومدلولا(signifiant-signifie) و لكنهم لم يقتصروا في علاماتهم على العلامات اللسانية بل تجاوزها إلى شتى مناحي الحياة الاجتماعية **(سائدة حسين محمد العمري: ٢٠٠٩، ص ٦٠.)**.

فلقد جاء "الرواقيون" بعد أرسطو بقرن من الزمان ليقدموا في الفلسفة اليونانية صيغة جديدة يتحدد من خلالها اللسان في الاشتغال والوجود والمكونات، فقد ميزوا بين ثلاثة عناصر في وجود كل علامة: فالعلامة تجمع بين ثلاثة عناصر: مضمون العلامة، والعلامة، وما هو موجود فعليا...وميزوا بعد ذلك بين العناصر النفسية وغير النفسية، فالصوت والشيء محسوسان، أما مضمون العلامة، وهو ما يتطابق مع المدلول السوسيري، فنفسي لأنه صورة مجردة عن الشيء **(سعيد بنكراد: ٢٠٠٧، ص ١٤.)**.

وهؤلاء إذن حسب "إيكو اكتشفوا" أن الاختلاف في أصوات اللغات وحروفها، أي شكلها الخارجي الذي يدعى بالدال ولكن هذه الاختلافات الشكلية الظاهرية بين اللغات البشرية، توجد بين مرئيات ومدلولات متماثلة تقريبا، ويصل امبريطو إيكو إلى أن هؤلاء الرواقيين(أي الذين لا يتكلمون اليونانية كلغة أم) قد سبقوا دي سوسير" في اكتشافات الفرق بين الدال والمدلول، فهولاء الدخلاء كانوا يمتلكون تجربة لا يمتلكها اليونانيون، أي تجربة الازدواج الثقافي والحضاري واللغوي من خلال ثلاث لغات: الكنعانية، و الأمازيغية واليونانية **(ميشال آريفيه وآخرون: ١٩٩٠، ص.٢٢)**.

٢.١ المرحلة الثانية

أما المرحلة الثانية فهي مرحلة القديس الجزائري –أوغسطين- حسب إيكو- فهو أول من طرح سؤال: ماذا يعني أن نفسر ونؤول؟ وهكذا راح يشكل نظرية التأويل النصي (تأويل النصوص المقدسة)، وبهذا تصبح أهمية مساهمته تكمن في تأكيده على إطار الاتصال والتواصل عند معالجته لموضوع العلامة **(ميشال آريفيه وآخرون:** ١٩٩٠، **ص.٢٣).**

فقد اعتبر أوغسطين اللغة "أداة لاحقة للفكر ولا تقوم إلا بالكشف عن مكنونه من خلال ألفاظ بعينها ويلاحظ أيضا أن الفكر سابق في الوجود على الكلمات المنطوقة منها أو المتخيلة فقط، فالشخص يمكن أن يفهم كلمة قبل النطق بها، وقبل أن تتشكل الصور الصوتية الضرورية لذلك إن هذه الكلمة لا تنتمي إلى أي لسان، إلى أي من تلك التي نطلق عليها الألسنية الإثنية...فعندما ندرك فحوى فكرة الشيء فإن اللفظ الدال سيكون لفظا نابعا من القلب لا باليونانية ولا باللاتينية ولا بأي لغة أخرى **(سعيد بنكراد،: ٢٠٠٧، ص. ١٤).**

ولما جعل السيميائيون منهجهم قائما على الإحالة والتأويل من دال إلى مدلول كان أوغسطين قد سبقهم في ذلك بسنوات حيث يرتكز مفهوم أوغسطين للعلامة على الكلمة أو على الأصح إنه يتجه نحو الاسم، ويتوزع على علاقته علامة/مفهوم، وحتى يشتغل الشيء بوصفه علامة ينبغي للمؤول أن يدرك بأنه علامة **(أحمد يوسف:** ٢٠٠٥، **ص. ٢٥).**

وتفسير ذلك أن أي شيء في الوجود وإن كان دالا بذاته على مفهوم، فإنه يستدعي الفكر لمفاهيم أخرى منبثقة، بيد انه يقدم حدا واضحا للعلامة في علم الجدل فما اسماه بالكلمة هو بمعنى الدال والصوت يقابل من جهة (dictio) أي الكلمة وأثرها في الذهن-وdictible –المفهوم- فالشيء لا يصبح علامة ما لم يحل على شيء آخر **(أحمد يوسف: ٢٠٠٥، ص. ٢٥).**

والذي دعا أوغسطين إلى التوصل لهذه النتيجة من خلال تفسيره مسيرة انتقال الهداية والمعرفة من الله إلى العبد حيث "هناك أولا سلطان الله الذي لا تحده حدود، وهناك ثانيا معرفة محايثة مرتبطة بملكوته، وهناك أداة للتوسيط توصل هذه المعرفة إلى عباده في الأرض، إنّ هذه الأداة هي اللفظ أي اللغة، والتوسط يتم من خلال

سيرورة تتمفصل في الألفاظ التالية: لفظ مفكر فيه خارج أي لسان، واللفظ الداخلي، أي لفظ القلب الذي تحول إلى لفظ داخلي مفكر فيه من خلال لسان اثني، ثم يأتي في المرتبة الثالثة اللفظ الخارجي أي اللفظ الداخلي المجسد من خلال الكلام، وهو بذلك لفظ محسوس **(سعيد بنكراد،: ٢٠٠٧، ص. ١٤)**.

وقد صنف أوغسطين العلامات إلى لسانية وغير لسانية وأعطى "الامتياز للعلامات المحمولة في الكلمات لكونها قادرة على تمثيل العلامات البصرية والسمعية وغيرها، نظرا لتوافر الكلام على القدرة المنطقية والطاقة الحجاجية، وإن تعددت الألسن لدى البشر فالقواعد واحدة في كل اللغات من حيث جوهرها **(أحمد يوسف:٢٠٠٥، ص. ٢٦)**.

وربما كان ذلك البذرة التي انطلق منها "دي سوسير" في تفضيله النسق اللساني عن باقي الأنساق السيميولوجية الأخرى.

٣.١ المرحلة الثالثة

أما المرحلة الثالثة فهي مرحلة العصور الوسطى، وكانت فترة مهمة من فترات التركيز على العلامات واللغة، واتساع استعمالها، وتطورت فيها نظرية العلامة تطورا ملحوظا حتى باتت دعامة أساسية في التفكير اللغوي **(ميشال آريفيه وآخرون: ١٩٩٠، ص. ٢٢)**.

وممن اشتهر بالتفكير السيميولوجي في ذلك الوقت: روجر بيكون، وغيوم دو أوكام، وجون دونس سكوت الذي كان له كبير الأثر في السيميوطيقا بيرس، حيث وسع سكوت مجال التأمل الفلسفي، ولم يقبل أن تحده الحدود، فكان يصف الوجود المعقول الذي يمكن أن يصل إليه العقل البشري بأداة الإشارة **(أحمد يوسف: ٢٠٠٥، ص. ٢٩)**.

هذا وكان لهذه المرحلة من مراحل تطور السيميولوجيا أثر كبير في كشف معالمها المنهجية، حيث كانت فلسفتهم تقترب كثيرا من تفكير اللغة الذهبية على اعتبار أنها نسق سيميولوجي قائم على المواضعة، إلى جانب أن العلامة قد اكتسبت في هذه

الفترة الطابع الرمزي، وبهذا أصبح لابد للعلامة اللسانية من موضوع محدد واضح حتى يتسنى لها أن تكون دالة **(أحمد يوسف: ٢٠٠٥، ص. ٣٠)**.

وإذا حاولنا استقراء تراثنا العربي، وجدناه حافلا بالدراسات المنصبة على دراسة الأنساق الدالة، وكشف قوانينها أو ما أسموه بعلم "أسرار الحروف" أي علم "السيمياء" ولاسيما تلك المجهودات القيمة التي بذلها مفكرونا من مناطقة وبلاغيين وفلاسفة وأصوليين...الخ أمثال (جابر بن حيان والحاتمي وابن سينا والفارابي والغزالي وابن خلدون والجرجاني و.....وغيرهم)(**http://www.merbad.net**) .

إذ عرفت السيميائية عند العرب إذن بأنها علم السحر والكهانة، ويقول صديق القنوجي في كتابه أبجد العلوم يعرف بأن السيمياء هي "ما هو غير حقيقي من السحر **(صديق القنوجي: ١٩٨٨، ص ٣٩٢.)**.

فالتصقت عند العرب بعلوم السحر والطلمسات التي تعتمد أسرار الحروف والرموز والتخطيطات الدالة، وأحيانا بالكيمياء، وفي بعض الأحيان بالفلسفة والمنطق الذي يجرد المعاني في سلاسل منتظمة ليصل إلى الحقائق.ولعل ممن اتهم بأنه كبير السحرة نظرا لمعرفته بالسيمياء "جابر بن حيان التوحيدي"، نظرا لأنه عالم الكيمياء المشهور، وقد كانت السيمياء فرعا من فروع الكيمياء وقد سميت السيمياء بكمياء القرون الوسطى، وأطلق بعضهم عليها لفظ الخيمياء **(عبد الرحمان ابن خلدون: ٢٠٠١، ص. ٤٩٥)**.

بلغ "ابن حيان" مرحلة متقدمة في علم الكيمياء، وكان خياله العلمي الطموح يفضي به إلى أن ينقل المعادن من حالة على حالة، إذ تطلع إلى تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن ثمينة، كان ذلك حلمه الذي سعى إليه بكل ما يملك، وأنفق فيه جهدا ووقتا كبيرين، فتحول الطموح عنده من عالم التحقيق إلى عالم التخيل والوهم، فوقع في طلب المستحيل، وتحول عنده علم الكيمياء إلى علم السيمياء **(عبد الرحمان ابن خلدون: ٢٠٠١، ص. ٤٩٥)**.

وإلى جانب "ابن حيان" فقد عرف كثير من العلماء الذين نبذهم أهلوهم لما كان لهم من يد طولى في السيمياء، منهم على سبيل التمثيل لا الحصر محمد بن محمد

اللثامي المعروف بابي الطواجن، وفي حلب الشهاب السهروردي الفيلسوف و أيضا علي بن أبي بكر الهروي، وموسى بن يونس العلامة كمال الدين أبو الفتح الموصلي الشافعي(**شمس الدين الذهبي: ١٩٩٨، ص ص. ٢٨٣-٢٨٤**).ولكن الملاحظ عند هؤلاء جميعا أنهم كانوا من أهل الفلسفة والمنطق.

ولم يتوقف الحال في السيميائية على السحر والكهانة عند جابر بن حيان وغيره، بل تجد كثيرا من العلماء المسلمين وخاصة الفلاسفة منهم الذين تأثروا بالمدرسة الرواقية قد نحوا بالسيميولوجيا إلى جانب الفلسفي، وإن أغرقوا في المنطق والجدل، من أمثلة ابن سينا وابن رشد والفارابي والغزالي في تناولهم لموضوع الدلالة، حيث تناولوا الألفاظ وما لها من أثر نفسي وهو ما يسمونه بالصورة الذهنية التي لا تبتعد عما نادى به "دي سوسير"، واعتبروا أيضا أن الكتابة دالة على الألفاظ، التي بدورها تدل على المعاني **(عادل فاخوري: ١٩٨٥، ص. ٧).**

وبناءا على ما يراه ابن سينا من أن الكتابة دالة على الألفاظ، والألفاظ دالة على المعاني، وبذلك يكون ثلاث دوال هي: الخط، واللفظ، والمعنى، و إلى جانبها ثلاث مدلولات هي: اللفظ، والمعنى، والأمر الخارجي(**سائدة حسين محمد العمري : ٢٠٠٩، ص. ٥٥).**

وقد صنف البعض العلاقة بين (الخط واللفظ) وبين (اللفظ والمعنى) بأنها دلالة خارجية، ويقصد بها الدلالة الوضعية أو العرفية أي الدلالة الرمزية، بينما العلاقة بين (المعنى والأمر الخارجي) فهي دلالة طبيعية وتوافق الأيقونية عند بيرس(**عادل فاخوري: ١٩٨٥، ص. ٨).**

ومن هذا المنطلق اللفظي لدى الفلاسفة تجد بعض التقارب مع السيمياء الحديثة، حيث المساهمة التي قدمها المناطقة والأصوليون والبلاغيون العرب مساهمة مهمة في علم الدلالة انطلاقا من المفاهيم اليونانية، وقد كانت محصورة ضمن إطار الدلالة على كل أصناف العلامات.

ومن الواضح أنهم اعتمدوا الدلالة اللفظية نموذجا أساسيا.كذلك فأقسام العلامة عند العرب قريبة من تقسيم بيرس.وتبقى أبحاثهم التي تتناول تعيين نوعية

دلالة الألفاظ المركبة أو بوجه عام العلامات المركبة وتحليل الدلالة المؤلفة من تسلسل عدة توابع دلالية، مدخلا جديدا ذا منفعة قصوى للسيمياء المعاصرة **(سائدة حسين محمد العمري: ٢٠٠٩، ص. ٥٦).**

تبدأ بوادر هذه المرحلة عند النقاد العرب المسلمين، حيث تجد السيميائية لها مكانا في كتاباتهم وطرائق تحليلهم للكتابات الأدبية.فقد أورد الجاحظ في البيان والتبيين قوله : "عند العرب العلامة وأخذ المخصرة من السيما" **(عثمان الجاحظ: دون سنة، ص. ٤٨).**

أي من علامات الخطيب التي يعرف بها، وقال أيضا: "وكانت سيماء أهل الحرم إذا خرجوا من الحرم إلى الحل في غير الأشهر الحرم أن يتقلدوا القلائد يعلقوا عليهم العلائق **(عثمان الجاحظ: دون سنة، ص. ٤٨).**

فالظاهر من كلامه أنه قد استخدم لفظة سيمياء للدلالة على العلامات فقط لا غير وإن لم يتعد في استخدامه لها كونها علامات.إلا أنّ هذا الحال لم يبق كما هو، فبعد أن جاء الجرجاني الشغف بتقصي الألفاظ ومعانيها المتخفية، أشار إلى إستخدام الإشارات والرموز والإيماءات للدلالة على معان خفية لا تقصد من ذات اللفظ، وإن لم يشر الجرجاني صراحة إلى المنهج السيميائي في استكشاف هذه الدلالات ورموزها الدالة عليها.

يقول الجرجاني في ذلك :"ولم أزلْ منذ خدمتُ العلم انظر فيما قاله العلماءُ في معنى الفصاحة والبلاغة والبيان والبراعة وفي بيان المغزى من هذه العبارات وتفسير المُراد بها فأجد بعض ذلك كالرمز والإيماء والإشارة في خفاء.وبعضه كالتنبيه على مكان الخبيء ليطلب وموضع الدفين ليبحث عنه فيخرج **(عبد القاهر الجرجاني: ١٩٩٩، ص ٤٦).**

ولم يقتصر الجرجاني في كلامه السابق على الإشارة إلى وجود دوال مرتبطة بمدلولات بعيدة بل عقب على ذلك بأن هناك طرقا وقواعد لتقصي هذه الدلالات.

وإنما دعا الجرجاني إلى التعليق الشديد بخفايا المعاني، وطرق الالتواء في الألفاظ اعتقاده "أن الصفة إذا لم تأتك مصرحا بذكرها مكشوفا عن وجهها ولكن

مدلولا بغيرها كان ذلك أفخم لشأنها وألطف لمكانها.كذلك إثباتك الصفة للشيء تثبيتها له إذا لم تلقه إلى السامع صريحا وجئت إليه من جانب التعريض والكناية والرمز والإشارة كان له من الفضل والمزية ومن الحسن والرونق ما لا يقل قليلُه لا يجهل موضع الفضيلة فيه (**عبد القاهر الجرجاني: ١٩٩٩، ص. ٢٣٥**).

وقد استخلص الجرجاني معتقداته تلك من طول تقصي لكلام العرب حيث قال:" والأمر في علم الفصاحة بالضد من هذا-التصريح- فإنك إذا قرأت ما قاله العلماء فيه وجدت جله أو كلّه رمزا ووحيا وكناية وتعريضا وإيماء إلى الغرض من وجه لا يفطن له إلا من غلغل الفكر وأدق النظر(**عبد القاهر الجرجاني: ١٩٩٩، ص. ٢٣٥**).

فالملاحظ على ذلك أن بوادر المنهج السيميائي قد بدأت بالتفتح على يد العلماء العرب، فهي تستمد منهم جذورها النقدية الحديثة وتصبغها بطابع فلسفي منطقي جديد، إذ تحاول ألا تقتصر على الإشارات والرموز والأيقونات، بل تجعلها عناصر ضمن عالم كامل من العلاقات التي تقوم السيميائية باستكشافه واستنطاق مكنونه (**سائدة حسين محمد العمري: ٢٠٠٩، ص. ٥٧**).

فسوسير في سيميولوجيته لم يكن ببعيد عن أفكار الجرجاني والجاحظ، وإن صبغ نظريته بالطابع الاجتماعي، وهل كان ذلك بمنأى عنهما؟ أو قصورا لديهما؟ بالطبع لا، ولكن إن هي إلا بديهيات تجاوزها ربما لعلمهم والمتلقين انه لا يمكن لخطاب ما أن يحيا في غير الوسط الاجتماعي الذي يكسبه المعنى والإيحاء.

بيد أن مثل هذه الآراء السيميولوجية التي شملتها كل هذه المجالات المعرفية لم تكن منهجية أو مؤسسة على أسس متينة، ولم تحاول يوما أن تؤسس نظرية متماسكة تؤطرها أو تحدد موضوع دراستها أو اختيار الأدوات والمصطلحات الإجرائية الدقيقة التي تقوم عليها.

وبالتالي لم تفكر في استقلالية هذا العلم، بل ظلت هذه الآراء السيميولوجية مضطربة تجرفها وتتقاذفها التصورات الإيديولوجية والسوسيولوجية والثقافية، ويقول مبارك حنون في هذا الصدد :" إلا أن مثل تلك الآراء السيميولوجية التي احتضنتها

مجالات معرفية عديدة، بقيت معزولة عن بعضها البعض، ومفتقدة لبنية نظرية تؤطرها كلها **(مبارك حنون: ١٩٨٨، ص. ٨)**.

٤.١ المرحلة الرابعة

ثم جاءت المرحلة الرابعة، حيث تبدأ هذه المرحلة مع بداية القرن السابع عشر حيث المفكرين الألمان والانجليز، ومنهم "**جون لوك**" الذي استعمل مصطلح سيميوطيقا (sémiotics) في أحد مقالاته ويعني بها "العلم الذي يهتم بدراسة الطرق والوسائط التي يحصل من خلالها على معرفة نظام الفلسفة والأخلاق وتوصيل معرفتهما **(ميشال آريفيه وآخرون: ١٩٩٠، ص. ٢٢)**.ويكمن هذا العلم في الاهتمام بطبيعة العلامات التي يستعملها العقل بغية فهم الأشياء أو نقل معرفته إلى الآخرين.

ظهر في القرن التالي-القرن الثامن عشر- الموسوعة والموسوعيين مثل أعمال فيكو وديدرو وكوندياك، و مع بداية النهضة الأوروبية نصادف الفيلسوف "ليبنتز Leibnitz " الذي حاول أن يبحث عن نحو كلي للدلائل، وعن ضرورة وجود لغة رياضية شكلية تنطبق على كل طريقة في التفكير"**(أنور المرتجي:١٩٨٧، ص. ٣)**.

فقد تأثر هؤلاء كثيرا بفلسفة ديكارت ومالمبراش، مما جعل "جون لوك " يعتقد بأن الفكر مثل اللغة يتصف بالاعتباطية، وقد كانت له قصبات السبق في ميلاد السيميائية تصورا ومصطلحا، حيث إنه حاول أن يقترب من إشكالية اللغة، ومن ثم الانخراط في الإشكالية السيميائية، حيث راهن على مبدأ العمومية، فهو الشرط الأساس للتواصل الذي يضمن فرادة الكائنات الإنسانية، وتاليا يفسر السيرورات السيميائية التي تصطنعها ملكة الفهم البشري **(أحمد يوسف: ٢٠٠٥، ص. ٤٦)**.

تبلورت في القرن الثامن عشر سيميولوجيا مثالية مع بركلي، و سيميولوجيا تجريبية مليئة بروح الشك مع هيوم، بينما سعى "كانت" للتخفيف من هذا الغواء، وقد كان التفكير السيميولوجي ينطلق من متصورات غائية متعالية، بيد أنها كانت تطرح مشروعها على أساس قاعدة اللغة وبخاصة لدى "هوبز" و"جون لوك،" في الوقت الذي كان فيه إيديولوجيو القرن الثامن عشر يرون بأن المسكن الحقيقي للإيديولوجية المثالية هو العلامة **(أحمد يوسف: ٢٠٠٥، ص. ٤٦)**.

ورغم هذا التقدم الكبير في منهجية السيميولوجيا في هذه المرحلة إلا أنها كانت تعاني من الاختلاف بين النزعتين الطبيعية والعقلية، نظرا لكثرة واختلاف أصحابها.

٥.١ المرحلة الخامسة

أما المرحلة الخامسة والتي يتفق جل الباحثين على أنها المرحلة الحاسمة في التحديد العلمي للسيميولوجيا، فقد حانت اللحظة الحاسمة لتتجلى السيميولوجيا بثوبها البراق نظرية ومنهجا لغويا ونقديا قائما على أسس صحيحة وخطوات منهجية سليمة منذ مطلع القرن العشرين.

لتستعيد مسارها الصحيح بعيدا عن البرجوازية وفلسفة هيجل، والنزعة التجريبية والوضعية والمنطقية، وتمثلت في البحث عن أنماط العلامات وتصنيفاتها وحدودها، حيث أصبح العلم يسائل هذه المتصورات السيميولوجية للغة حتى يتسنى لها الحديث عن علمية بقية الأنساق السيميولوجية الدالة التي لا ترتكز على العلامة اللسانية بغية إيجاد إطار تنظيمي لها، والوقوف على ابدالاتها في ظل تحولات النماذج في حركة تاريخ المجتمع **(سائدة حسين محمد العمري: ٢٠٠٩، ص. ٦٣).**

و هي مرتبطة ارتباطا وثيقا بالنموذج اللساني البنيوي الذي أرسى دعائمه وأسسه العالم السويسري" فرديناند دي سوسير**(Ferdinand de Saussure)"** في فرنسا في كتابه" محاضرات في اللسانيات العامة" وذلك منذ القطيعة الإبيستمولوجية التي أحدثها في ميدان الدراسات اللسانية إن جاز التعبير مع فقه اللغة واللسانيات التاريخية، وقد جعلت هذه القطيعة اللسانيات العلم الشامل والرائد الذي تستفيد منه مختلف المدارس والمشارب المعرفية كالنقد الأدبي والأسلوبية والتحليل النفسي وعلم الاجتماع بالإضافة إلى جهود الوظيفيين في اللسانيات والشكلانيين الروس في الشعرية.

كما ارتبط هذا العلم من جهة أخرى بالمنطق على يد الفيلسوف الأمريكي" **(Charles Sanders Peirce)** " (١٨٣٩-١٩١٤) في أمريكا، لكن على الرغم من ظهورهما في مرحلة زمنية متقاربة، فإن بحث كل منهما استقل وانفصل عن الآخر انفصالا تاما إلى حد ما، فالأول بشر في "محاضراته "بـ ظهور علم جديد سماه

السيميولوجيا(Sémiologie) سيهتم بدراسة الدلائل أو العلامات في قلب الحياة الاجتماعية.

ولن يعدو أن يكون موضوعه الرئيس مجموعة الأنساق القائمة على اعتباطية الدلالة على حد تعبير "دي سوسير(F.de Saussure)" الذي يقول كذلك في هذا الصدد:" ونستطيع إذا- أن نتصوّر علما يدرس حياة العلامات داخل الحياة الاجتماعية، علما قد يشكل فرعا من علم النفس الاجتماعي وبالتالي فرعا من علم النفس العام، وسوف نسمي هذا العلم بالسيميولوجيا، ومن شأن هذا العلم أن يطلعنا على كافة هذه العلامات وعلى القوانين التي تحكمها...وإن اللسانيات ليست سوى فرع من هذا العلم العام..."**(مارسيلو داسكال:١٩٨٧، ص.١٥).**

وقد تزامن هذا التبشير مع مجهودات" بيرس **(Ch. Peirce)"** الذي نحا منحى فلسفيا منطقيا رياضيا، وأطلق على هذا العلم الذي كان يهتم به بـ "السيميوطيقا"" (Sémiotique) واعتقد تبعا لهذا أن النشاط الإنساني نشاط سيميولوجي في مختلف مظاهره وتجلياته، ويعد هذا العلم في نظره إطارا مرجعيا يشمل كل الدراسات، يقول وهو بصدد تحديد المجال السيميولوجي العام الذي يتبناه : " إنه لم يكن باستطاعتي يوما ما دراسة أي شيء- رياضيات كان أم أخلاقا أو ميتافيزيقا أو جاذبية أو ديناميكا حرارية أو بصريات أو كيمياء أو تشريحا مقارنا أو فلكا أو علم نفس أو علم صوت، أو اقتصاد أو تاريخ ... دون أن تكون هذه الدراسة سيميولوجية" **(Todorov :1972 ;p.11)** .

إذن، فالسيميوطيقا حسب "بيرس (Ch.S . Peirce) " مذهب الطبيعة الجوهرية والتنوعات الأساسية للدلالة الممكنة " **(رولان بارت:١٩٨٦،ص.٢٠)**، بمعنى نظرية عامة للعلامات وتمفصلاتها في الفكر الإنساني، ثم إنها صفة لنظرية عامة للعلامات والأنساق الدلالية في كافة أشكالها... وبالتالي، تعد سيميولوجيا "بيرس (Ch.S . Peirce) "مطابقة لعلم المنطق، ويضيف "أمبرطو إيكو Umberto Eco" في هذا الخصوص عن "بيرس" محددا مضمون علمه بكل دقة ووضوح وعلاقته بعلم المنطق:"

لنستمع الآن إلى بيرس وهو يقول: "إنني حسب علمي الرائد أو بالأحرى أول من ارتاد هذا الموضوع المتمثل في تفسير وكشف ما سميته السيميوطيقا (Sémiotique) أي

نظرية الطبيعة الجوهرية لأي سيرورة دلالية، إن هذه السيميوطيقا التي يطلق عليها في موضع آخر" المنطق" تعرض نفسها كنظرية للعلامات **(إدريس بلمليح: ١٩٨٤، ص.١١١).**

كما ظهرت في هذه المرحلة جوليا كريستيفا التي بحثت في لغة التواصل المباشرة الموضوعة من قبل اللسانيات والتي تبدو أكثر الأنساق الدلالية في الإنتاج، وقد شاركت في تأسيس مجلة عنيت باللسانيات والسيميائيات.غير أن الأنساق السيميائية لم تقتصر في هذا العصر على النموذج اللساني، بل تعدته إلى نماذج كثيرة جدا، مثل لغة المسرح والإيماءات وأنماط الخطابات والتصوير والرسم والعمارة وغير ذلك، ولكن كريستيفا اعتبرت جميع هذه الأنساق الدالة لغات لكونها تمثل مرسلات لها باعثون ومستقبلون يمتلكون أسننا مشتركة، وخاصة وإن لم تخضع لمواصفات قواعد اللغة اللفظية **(ميشال آريفيه وآخرون: ١٩٩٠، ص. ٥٠).**

ويؤكد "دي سوسير" عالم اللسانيات ما ذهبت إليه كريستيفا حيث إنه منح الامتياز للسان بوصفه نسقا سيميولوجيا دالا، لأنه من بين أكثر الأنساق التعبيرية تعقيدا وأوسعها انتشارا هي أيضا أشدها تمثيلا للخصائص السيميولوجية، وعليه تستطيع اللسانيات أن تصبح الأنموذج العام لكل السيميائيات **(أحمد يوسف: ٢٠٠٥، ص. 52).**

و يعتبر "رولان بارت" تلميذ سوسير خير من يمثل منهج البحث السيميولوجي، إذ نهج به المنهج التطبيقي فهو يرى أن البحث السيميولوجي هو دراسة الأنظمة والأنساق الدالة وجميع الوقائع والأشكال الرمزية والأنظمة اللغوية تدل سواء باللغة أو بغيرها. وبالتالي يفترض تطبيق المقاييس اللسانية على الوقائع غير اللفظية، إلى جانب اللفظية لبناء الطرح الدلالي.وبذلك يؤكد على وجود أنساق غير لفظية حيث التواصل غير الإرادي، ولكن البعد الدلالي موجود بدرجة كبيرة وتعتبر اللغة الوسيلة الوحيدة التي تجعل هذه الأنساق والأشياء غير اللفظية دالة **(فانسا جوف: ٢٠٠٤، ص ص. ٣٥-٣٨).**

وبناءا على هذا نجد أن للسيميولوجيا أو السيميوطيقا تفاعلات كثيرة مع معارف وحقول أخرى داخل المنظومة الفكرية والعلمية والمنهجية، فلقد ارتبط هذا العلم في نشأته بالفلسفة واللسانيات وعلم النفس والاجتماع والمنطق و الظاهراتية

(الفينومينولوجيا) علاوة على ارتباطها بدراسة الأنثروبولوجيا كتحليل الأساطير والأنساق الثقافية غير اللفظية، كما ترتبط منهجيا بدراسة الأدب (الشعرية والنحو والبلاغة) والفنون اللفظية والبصرية كالموسيقى والفنون التشكيلية والمسرح والسينما ...الخ.

أما عن ظهور السيميولوجيا في العالم العربي فقد ظهرت عن طريق الترجمة والمثاقفة والاطلاع على الإنتاجات المنشورة في أوربا والتلمذة على أساتذة السيميولوجيا في جامعات الغرب.

وقد بدأت السيميولوجيا في دول المغرب العربي أولا، وبعض الأقطار العربية الأخرى ثانيا، عبر محاضرات الأساتذة منذ الثمانينيات عن طريق نشر كتب ودراسات ومقالات تعريفية بالسيميولوجيا (مبارك حنون، محمد السرغيني، سمير المرزوقي، جميل شاكر، عواد علي، صلاح فضل، جميل حمداوي، فريال جبوري غزول، محمود ابراقن، قدور عبد الله ثاني...الخ)، أو عن طريق الترجمة (محمد البكري- أنطوان أبي زيد- عبد الرحمن بوعلي- سعيد بنكراد...الخ)، وإنجاز أعمال تطبيقية في شكل كتب (محمد مفتاح، سعيد بنكراد- محمد السرغيني- سامي سويدان...الخ)، أو مقالات (انظر مجلة علامات ودراسات أدبية لسانية سيميولوجية بالمغرب ومجلة عالم الفكر الكويتية وعلامات في النقد السعودية ومجلة فصول المصرية-...)، أو ملتقيات علمية في مختلف الجامعات العربية **(عبيدة صبطي، نجيب بخوش:٢٠٠٩، ص١٣).**

٢. مفهوم السيميولوجيا

لقد تناول الباحثون المختصون مفهوم السيميولوجيا حسب نظريات متفقة أو مختلفة، وحسب مجالات متنوعة، كما تناولوا كل مكوناتها وعناصرها وقد كتبت مقالات في هذا الشأن، وألفت كتب وعقدت ندوات، بيد أن القارئ المبتدئ أو العادي الذي قد يكون في عجلة يخرج مضبب الرؤى لا تتضح أمامه مظاهر الاشتراك والافتراق بين تلك النظريات والمجالات، وخاصة الطالب العربي يواجه الكثير من الصعوبات، حينما يدرس السيميولوجيا ويحاول أن يستوعبها ويتمثلها ليجتهد فيها، والتي تتجلى بالأساس في تداخل المصطلحات وتشعبها واختلاف مضامينها.

لذلك سوف نقتصر في هذا الصدد على تحليل المصطلحين الرئيسين المستعملين في هذا الحقل المعرفي وهما: السيميولوجيا (sémiologie) و السيميوطيقا (Sémiotique) معترفين أننا مهما حاولنا إيجاد محاولة لتعريف هذين المصطلحين لانستطيع أن نستقر على تعريف دقيق ومحدد، لأن" أية محاولة للتعريف، لابد لها أن تصطدم بتعدد وجهات النظر في تحديد هوية هذا الحقل المعرفي تحديدا دقيقا **(عبد الرحيم جيران: ١٩٨٨، ص.٧)**.

١.٢التعريف اللغوي للسيميولوجيا

إن كلمة سيميولوجيا (Sémiologie) من الأصل اليوناني (Sémion) أو (Sémaino) والمتولدة هي الأخرى من الكلمة (Séma) وتعني **العلامة (الدليل)** (signe) وهي بالأساس الصفة المنسوبة إلى الكلمة الأصل(Sens) أي **المعنى**.أما عن لفظة "لوجيا" (logie) فتعني **العلم**، وبالتالي فإن **كلمة السيميولوجيا أو السميوطيقا من الناحية اللغوية** تعني **علم العلامات (برنار توسان:٢٠٠٠، ص.٩)** أو العلم الذي يقوم بتحليل المعاني عن طريق **العلامات (Bignell, 1997:p.1)**.

٢.٢التعريف الاصطلاحي للسيميولوجيا

إن السيميولوجيا أو السميوطيقا أو السيمياء، لدى دارسيها تعني "علم دراسة العلامات دراسة منظمة و منتظمة"**(الرويلي وسعد البازعي:دون سنة، ص. ١٧٧)** فهي تدرس مسيرة العلامات في كنف الحياة الاجتماعية و قوانينها التي تحكمها "**(برنار توسان:٢٠٠٠،ص.٩)** مثل أساليب التحية عند مختلف الشعوب وعادات الأكل والشرب عندهم...الخ.

إلا أن الأوروبيون يفضلون مصطلح **السيميولوجيا** التزاما منهم بالتسمية السوسيرية نسبة إلى دي سوسير، أما الأمريكيون فيفضلون مصطلح السميوطيقا التي جاء بها المفكر والفيلسوف الأمريكي "تشارلز ساندرس بيرس (Charles Sanders Peirce)" أما العرب، خاصة أهل المغرب العربي فقد دعوا إلى ترجمتها بـ" السيمياء" محاولة منهم في تعريب المصطلح، وكما يقول معجب الزهراني: إن السيمياء ترتبط بحقل دلالي لغوي ثقافي يحضر معها فيه كلمات مثل السمة والتسمية، والوسام والوسم والميسم

والسيماء، والسيمياء(بالقصر والمد) والتي تعني علم العلامة **(الرويلي وسعد البازعي:دون سنة:ص ص. ١٧٧-١٧٨).**

ويتضح مما سبق أن لفظ السيمياء قد ورد في القرآن الكريم ست مرات، وذلك في قوله تعالى **[تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا]** [سورة البقرة:الآية،٧٦]، وقوله كذلك عز وجل **[وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم]** [سورة الأعراف:الآية،٤٦] وقوله **[ونادى أصحاب الأعراف رجال يعرفونهم بسيماهم]** [سورة الأعراف:الآية،٤٨]، **[ولو نشاء لأريناكم فلعرفتهم بسيماهم]**[سورة محمد:الآية،٣٠]، وقوله تعالى **[سيماهم في وجوههم من أثر السجود]**[سورة الفتح:الآية،٢٩]،وقوله تعالى **[يعرف المجرمون بسيماهم]** [سورة الرحمان:الآية،٤١].

ويحسن بنا في هذا السياق، أن نستحضر بعض من تعاريف باقي الباحثين بإيجاز كي يتسنى لنا التمييز بين مصطلحي السيميولوجيا و السيميوطيقا، و هل يؤثر تغيير شكل المصطلحين على تغيير مضمونهما؟

فهذا "بيير غيرو **Pierre Guiraud"** أحد أساتذة جامعة نيس الفرنسية- يعرف السيميوطيقا قائلا:" السيميوطيقا علم يهتم بدراسة أنظمة العلامات، اللغات، أنظمة الإشارات، التعليمات...الخ. وهذا التحديد يجعل اللغة جزءا من السيميوطيقا" **(بيير غيرو: ١٩٨٤، ص. ٥).**

يتبين لنا من خلال هذا التعريف السابق، أن "غيرو (P. Guiraud) " يتبنى نفس الطرح "السوسيري" الذي يعتبر اللسانيات فرعا من السيميولوجيا، غير أن" رولان بارت **(Roland Barthes)"** سيفند هذا الطرح ويقلب المعادلة على عقبها، بتأكيده على أن السيميولوجيا. لايمكن أن تكون سوى نسخة من المعرفة اللسانية.

فإذا كان دي سوسير قد ضيق الدرس السيميولوجي ووجه كل اهتماماته للغة، وجعلها الأصل محل الصدارة، فإن مفهوم "بارت(R.Barthes) " للسيميولوجيا فسح المجال بحيث اتسع حتى استوعب دراسة الأساطير واهتم بأنسقة من العلامات التي أسقطت من سيميولوجيا " دي سوسير" كاللباس وأطباق الأكل والديكورات المنزلية، و الأطعمة والأشربة وكل الخطابات التي تحمل انطباعات رمزية ودلالية، أما "جورج مونان

(George Mounin)" فيعني بالسيميولوجيا:"دراسة جميع السلوكات أو الأنظمة التواصلية " **(George Mounin :P.133)**.

أما "أمبرطو إيكو (Umberto Eco) "فقد استبدل مصطلح السيميولوجيا (Sémiologie) بمصطلح السميوطيقا (Sémiotique) فيقول في مستهل كتابه: البنية الغائبة (La structure Absente) معرفا هذا العلم" السيميوطيقا تعني علم العلامات"(**http://www.arabicnadwah.com**).

أما بالنسبة لمدرسة باريس التي تضم كلا من "غريماس(Greimas) " [*]و"كوكيه (Coquet)" و "أريفي (Arrivé)" الخ...فلها تعريف مغاير للتعاريف السالفة الذكر فهي في مشروعها" تأسيس نظرية عامة لأنظمة الدلالة"(**http://www.arabicnadwah.com**).

ويتبين لنا من خلال هذه التعاريف أن السيميولوجيا والسيميوطيقا متقاربتان في المعنى، فالسيميولوجيا –إذا- مرادفة للسيميوطيقا، وموضوعها دراسة أنظمة العلامات أيا كان مصدرها لغويا أو سننيا كما تدرس أنظمة العلامات غير اللسانية، فلم تعد ثمة أسباب أو مبررات تجعل أحد المصطلحين يحظى بالسيادة دون الآخر**(عبيدة صبطي، نجيب بخوش:٢٠٠٩، ص. ١٧)**.

وإن كانت هناك أسباب تميز بعضهما، فهي في الواقع أسباب بسيطة تعتمد النزعة الإقليمية على حد تعبير"ترنس هوكز" الذي يقول في هذا الخصوص: " ومن غير

(*) لقد كان غريماس في بداية الستينات الوريث الحقيقي لهيالمسلف ودي سوسير في دراسة الدلالات، فانه اقبل على نظرية اللغة متبعا في ذلك مسارا شخصيا، في (١٩٣٣) على وجه التقريب، لم يكن هناك شيء يوحي بان هذا الليتواني الصغير الذي يبلغ من العمر ١٦ سنة، سيتوجه إلى دراسة اللسانيات الفرنسية، وهو الذي تعلم لوحده اللسان الألماني حتى يستطع قراءة نيتشه، في حين نجد نزوع غريماس إلى البحث السيميولوجي تولد، في الظاهر على الأقل، عن سلسلة من المصادفات سببتها حوادث التاريخ في هذه المنطقة من العالم في نهاية الثلاثينيات **(أن إينو :٢٠٠٤، ص. ١٠٤)**.

اليسير التمييز بينهما، وتستعمل كلتا اللفظتين للإشارة إلى هذا العلم (يعني به علم العلامات) والفرق الوحيد بين هاتين اللفظتين أن السيميولوجيا مفضلة عند الأوربيين تقديرا لصياغة "دي سوسير" لهذه اللفظة، بينما يبدو أن الناطقين بالإنجليزية يميلون إلى تفضيل السيميوطيقا احتراما للعالم الأمريكي "بيرس"، لكن الصيغة الثانية السيميوطيقا كتسمية لمجال هذا العلم هي التي أُقرَّت أخيرًا **(ترنس هوكز:١٩٩٦، ص.١١٤)**، و أُخذَ بها من قبل " المجمع الدولي لعلم السيميوطيقا" المنعقد بباريس في شهر جانفي سنة (١٩٠٩).

كما يقول "أمبرطو إيكو(Umberto Eco)" في هذا الصدد:" لقد قررنا على كل حال أن نتبنى هنا بصفة نهائية مصطلح السيميوطيقا (Sémiotique) بدون أن نتوقف عند المناقشات حول التوريطات الفلسفية أو المنهجية لكلا المصطلحين، نحن نخضع بكل بساطة للقرار المتخذ في جانفي سنة (١٩٦٩) بباريس من لدن الهيئة الدولية التي انبثقت عنها الجمعية الدولية للسيميوطيقا والتي قبلت (بدون أن تقصي استعمال السيميولوجيا) مصطلح السيميوطيقا على أنه هو الذي ينبغي ابتداءً من الآن أن يغطي جميع المفاهيم الممكنة للمصطلحين المتنافس فيهما**(http://www.arabicnadwah.com)**.

ولكن رغم هذا حدد "غريماس" الفرق بين المصطلحين في اللغة الفرنسية بأن جعل السيميوطيقا تحيل إلى الفروع أي دراسة أنظمة العلامات المختلفة مثل سيميوطيقا الصورة الثابتة، سيميوطيقا المسرح، سيموطيقا الصورة الإشهارية، سيميوطيقا العمران، سيميوطيقا الكاريكاتير...الخ، أما السيميولوجيا فهي **هيكل نظري** لعلم العلامات بصفة عامة دون تخصص لهذا النظام أو ذاك**(قدور عبد الله ثاني:٢٠٠٤ ، ص.٩٨)**.

وبالتالي فالهدف من دراسة السيميولوجيا هو دراسة المعنى الظاهر و الخفي لكل نظام علاماتي فهي تدرس لغة الإنسان اللفظية و غير اللفظية و ما يحيط به باعتبارها نسق من العلامات مثل: العلامات التجارية وإشارات المرور والخرائط والصور الفوتوغرافية...الخ.

واستنادا إلى ما سبق، نستخلص بأن الموضوع الرئيس للسيميولوجيا حسب "بيرس" هو السيرورة المؤدية إلى إنتاج الدلالة، أي ما يطلق عليه في الاصطلاح السيميولوجي السميوز (Sémiosis)، والسميوز في التصور الدلالي الغربي هي **"الفعل"** المؤدي إلى عملية إنتاج الدلالات وتداولها، أي سيرورة يشتغل من خلالها شيء ما باعتباره علامة، وبهذا فإن كل واقعة تستند من أجل إنتاج دلالاتها، إلى سيرورة داخلية تجمع بين العناصر المكونة لها **(سعيد بنكراد:٢٠٠٣، ص.١٧١)**.

وهذا ما وضحته "جوليا كرستيفا" في قولها:" إن دراسة الأنظمة الشفوية وغير الشفوية ومن ضمنها اللغات بما هي أنظمة أو علامات تتمفصل داخل تركيب الاختلافات، إن هذا هو ما يشكل موضوع علم السيميوطيقا**(عصام خلف كامل:٢٠٠٣، ص.٢٦)**.